

تمهيد

أجمع الباحثون على أن " تشارلز ساندرس بيرس (Charles S. Peirce) " لم يلتقي، أو لم يقرأ عن "دي سوسير (Ferdinand de Saussure)" والعكس صحيح أيضاً، إلا أن معطياتهما تكاد تكون متقاربة ومنسجمة في بعض المواضع، فكلاهما أسس لعلم نقدي لغوي شامل، وهو علم العلامات، وكلاهما انطلق من تأسيس ذلك من خلال الحديث عن معطيات العلامة وتصنيفاتها ومداخلها، وميادين تنظيرها وتطبيقها، وكلاهما أسهم في إنعاش الحركة المعرفية، وعُدت معطياتهما طرائق يُهتدى بها في السلوك التحليلي للرسائل اللغوية والرسائل البصرية.

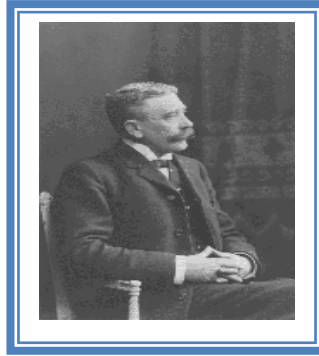
وانطلاقاً مما سبق نجد أنفسنا أمام مدرستين أساسيتين هما المدرسة الفرنسية بزعامة دي سوسير (Ferdinand de Saussure)" والمدرسة الأمريكية بقيادة " تشارلز ساندرس بيرس (Charles S. Peirce)".

١. المدرسة الفرنسية

مما لا شك فيه أن كتاب "دي سوسير" المعنون بـ "محاضرات في اللسانيات العامة" قد بلغ قيمة علمية كبيرة في مجال اللسانيات، فقد ساعد على تحديد مجرى لسانيات القرن العشرين، والابتعاد بها كلياً عن المناهج اللسانيات التاريخية.

ومن الأمور التي اشتهر بها "دي سوسير" استخدامه لظاهرة ملفتة للانتباه تمثلت فيما يسمى بالثنائيات، ومن الممكن جداً أن يكون "دي سوسير" قد تأثر بالنظرية الكلاسيكية القائلة بأن ثمة وجهين مختلفين لكل شيء في هذا الكون كلاهما يكمل الآخر، وقد ظهرت هذه الفكرة من قبل عند أرسطو وديكارت، وقد استعملها "دي سوسير" من جديد في شكل دعائم مزدوجة أو تفرعات ثنائية.

كما يقوم المنهج الذي تبناه "دي سوسير" (Ferdinand de Saussure) على فكرة النظام اللساني الذي يتكون من عناصر دالة منسجمة فيما بينها تمثل بنيته الجوهرية. فلقد أوضح "دي سوسير" أن هدف الدراسة هو اللغة وبينما أن اللغة علامات مخزنة في الذهن، فالهدف من الدراسة اللغوية إذن هو دراسة العلامة اللغوية أو الدليل اللغوي.



Ferdinand de Saussure

1.1 التعريف برائد المدرسة الفرنسية (فردناند دي سوسير)

فردناند دي سوسير (Ferdinand de Saussure) " لغوي سويسري ولد بجنيف ٢٦ نوفمبر سنة (١٨٥٧)، والتحق بجامعة لا يزيش، سنة (١٨٧٦)، فتعلم على يد الأستاذ الكبير "جورج كورتيسوس" وكانت له فرصة الالتقاء بالنحاة الشباب المحدثين (الثائرين على هذا الأستاذ) وعلى رأسهم "كارل بروجمان" (محمود إبراهيم: دون سنة، ص.٤٥).

والتحق بحلقة اللغويين الألمان وأسهم بأفكاره في مجال الدراسات المقارنة وفي سنة (١٨٧٨) في شهر ديسمبر أنهى مشروع البحث الذي يحمل عنوان "مذكرة في النظام البدائي للصوائت في اللغات الهند وأوربية"، وقد طبع هذا البحث في سنة (١٨٨٩) وحقق شهرة عالمية وكان "دي سوسير" آنذاك لا يتجاوز الواحد والعشرين من عمره، وأقام ببازيس من بين (١٨٨٠ إلى ١٨٩١) حيث في (١٨٨٠) تقدم بأطروحته التي تحمل عنوان "استعمال المضاف المطلق في اللغة السنسكريتية" (نور الهدى لوشن: دون سنة، ص ٢٩٨-٢٩٩).

وتولى دي سوسير خلال هذه المرحلة منصب مدير الدراسات بالمدرسة التطبيقية للدراسات العليا، وفي الوقت نفسه كان يحاضر هناك لجمع الطلبة في اللسانيات التاريخية والمقارنة. وفي سنة (١٨٩١) رجع إلى مسقط رأسه واستقر هناك يدرس بجامعة جنيف إلى وافته المنية سنة (١٩١٣) عن عمر يناهز الستة والخمسين عاما نتيجة سرطان أصابه في حلقه.

وهكذا، قضى "دي سوسير" جل حياته في دراسة اللسانيات التاريخية وتدريسها ولم يدرس اللسانيات الآنية والتنظير اللساني العام اللذين اشتهر بهما بعد موته إلا في السنوات الأخيرة من حياته. وبدون منازع، يعد هذا المفكر السويسري اليوم أب اللسانيات الحديثة ومؤسس المنهج الآني وأول منظر في كل من البنيوية والسيميولوجيا (أحمد مؤمن: ٢٠٠٣، ص.١١٨).

و بعد وفاته، في ٢٢ فبراير سنة (١٩١٣)، جمع طلبته (نذكر من بينهم: بالي (Ch.Bally) وسيشيبي (Sechehayé) اللذين خلفاه على رأس مدرسة جنيف اللسانية) كل دروسه لينشرها، عام (١٩١٦)، في مؤلف بعنوان "محاضرات في اللسانيات

العامة(Cours de Linguistique Générale)" (محمود ابراقن: دون سنة، ص.٤٥)، وذلك انطلاقا من الكراسات المتنوعة للطلبة والحواشي التي كتبها نفسه.

وتبدو الحياة السرية لهذا العالم المتقشف ممزقة تتخللها انكسارات وتمزها من العمق مأساة عنيفة خفية نلاحظها في تنقلاته (أن إينو: ٢٠٠٤، ص. ٢١). ولم يكن ولوع "دي سوسير" بإبراز أوجه التناقض في اللسان بمجرد رغبة أو هوسا على حد تعبير "فيكتور هنري" بقدر ما كانت تلك الثنائيات نتاج تمحيص لبني اللغة، ويبدو أن هذه الثنائيات لا تمثل تطابقا واختلافا جذريا كما يتصورها البعض أن تكون فهي متداخلة، وتبدأ حين تنتهي سابقتها، وليس لأحدهما قيمة إلا بالأخرى فالفصل الذي يقيمه الدارس بين الدراسة التاريخية والآنية لا يحدث على مستوى الأشياء المدروسة لغويا، وإنما في مستوى الذهن فهي كخطوط الطول والعرض تسهل على الدارس لجغرافيا الأرض فقط، إن ثنائيات "دي سوسير" تكشف عن مجمل تصوره اللساني، وقد أضحت هذه الثنائيات مبادئ أساسية للسانيات العامة، وربما كان مهما في التأسيس اللساني عرضها كما وردت في محاضرات "دي سوسير" وهي كالاتي (بوقرة نعمان: ٢٠٠٦، ص. ٨٨).

٢.١ ثنائيات دي سوسير

ومن جملة الثنائيات التي قدمها "دي سوسير" هي: ثنائية: لسان/ كلام، ثنائية: دال/ مدلول، ثنائية: أني/ تطوري، ثنائية: التركيبي/ الاستبدالي.

١. ثنائية لسان/ كلام

تقوم اللغة (Langage) حسب رأي "دي سوسير" على عنصرين رئيسين : "لسان" والذي يعتبره: "على أنه نسق من العلامات المعبرة عن أفكار، وهو بذلك شبيه بأبجدية الصم والبكم وبالطقوس الرمزية وبأشكال الآداب والإشارات العسكرية، إلا أنه يعد أرقى هذه الأنساق، من هنا تأتي إمكانية البحث عن علم يقوم بدراسة هذه العلامات داخل الحياة الاجتماعية..." أو بوصفه شفرة اتفقت عليها الجماعة اللغوية (Langue) و"الكلام" (Parole) بوصفه استعمالا لشخصيا لتلك الشفرة، وهو ما يعطي لنا المعادلة الآتية:

اللغة= لسان +كلام، لأن اللغة اللفظية تتمثل في مقدرة الإنسان على الاتصال باستخدامه لنظام دلائل صوتية (محمود إبراقن:دون سنة،ص.٧٨).

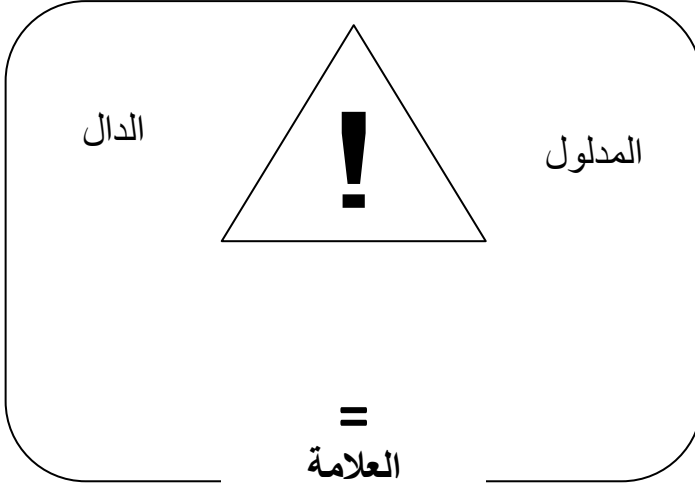
فلا يمكن معرفة أي شيء دون الاستعانة بعلامات اللسان، ذلك أن العالم بكل موجوداته يحضر في الذهن على شكل مضمون لساني، فأشياؤه وتجاربه توزع وتصنف من خلال المفاهيم وطرق التقطيع التي يوفرها اللسان، فنحن لا يمكن أن ندرك هذا العالم ولا أن نعرف عنه أي شيء إلا عبر الكلمات وكل ما يسمح به نظام اللسان، فاللسان أداة للتعيين وأداة للتصنيف وأداة للتقطيع المفهومي (<http://www.saidbengrad.com>).

و يمكن أن يفهم من هذه الثنائية أن الكلام يمتلك تنظيما مستقلا عن اللسان إلا أنه يبقى في حقيقة الأمر، مجسدا في أرض الواقع ومقررا لمساره فعلا.

إن كلا من اللسان و الكلام هما في علاقة جدلية حقيقية: لأن اللسان، في نظر "دي سوسير" هو الكنز الذي يودع بفضل ممارسة الكلام في ذاكرة أفراد الجماعة اللغوية نفسها بمعنى أن اللسان لا وجود له خارج الكتلة المتكلمة، علما بأن الكلام هو الذي يطور اللسان: لأن وقائعه-تاريخيا- هي التي تسبق دائما وقائع اللسان.

٢. ثنائية الدال/ المدلول

فالعلامة اللغوية تعد وحدة النظام اللساني وهي تتكون من صورة سمعية (Image acoustique) ومفهوم (Concept) ، ثم يصح "دي سوسير" بالإبقاء على مصطلح العلامة للدلالة على الكل، وتعويض مفهوم وصورة سمعية بلفظي (دال). (le signifiant) ومدلول (le signifié)، وهو كما هو موضح في الشكل الموالي:



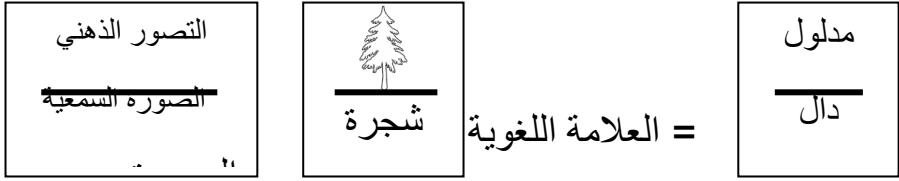
إذن فالدال عند "دي سوسير" صورة سمعية مشتقة من كيان صوتي، أو هي تمثيل طباعي (في حال وجود كتابة)، إنه متوالية من الأصوات أراد لها الاستعمال الجماعي الناتج عن تعاقد لا تُعرف له بداية، أن تكون كيانا يحل محل شيء آخر، ويتميز هذا الكيان بـ:

أ- إنه نفسي وليس ماديا، فنحن لا نحتاج إلى استحضار الجزء المادي في تعريفه. إن آلة الصوت لا تحدد مضمون الصوت، من هنا فإنه البصمة النفسية التي تلتقطها أذن المتلقي، أو يقوم بتشكيلها لسان الباعث، إنه نفسي فنحن نستطيع أن نتحدث إلى أنفسنا أو نستظهر مسرحية أو قصيدة شعرية دون تحريك الشفاه (F.De.Saussure:1979, p.98).

ب- إنه مفروض وليس حرا، فالذات المتكلمة لا تستشار في أمره، ومن ثم لا تستطيع لا تبديله ولا تغييره. فهو نتيجة عرف، وسلطة العرف أقوى وأعمق من سلطة القانون، فالدال الذي يختاره اللسان لا يمكن استبداله بآخر لأنه ينفلت من إرادتنا ومن قدرتنا على إحلال عنصر آخر محله.

وأما المدلول فهو التصور الذهني الذي نملكه عن شيء ما في العالم الخارجي. إنه ليس الشيء ولا يمكن أن يكونه، إنه الصورة المجردة التي يمنحها اللسان إلى الشيء عبر التعيين والتسمية. فالشيء لا يحضر في الذهن من خلال ماديته، إنه يأتي إليه من خلال بنية شكلية تعد تكثيفا لمجموعة من الخصائص التي تمكننا من استحضار هذا الشيء وفق سياقات متعددة. ورغم أن "دي سوسير" لم يكن واضحا بما فيه الكفاية في تعريفه للمدلول، فإنه مع ذلك كان قطعيا في تحديد جوهره، فالمدلول ليس شيئا ولا يعين مرجعا، إنه يكتفي بالإحالة على قسم من الأشياء وفق سيرورة تقود إلى تجريد الظاهرة وتحويلها من الملموس إلى المجرد. وعلى هذا الأساس اعتبره "سوسير"، شأنه في ذلك شأن الدال، كيانا نفسيا (<http://www.saidbengrad.com>).

والعلامة اللغوية عند "دي سوسير" لا توجد بين الاسم و الشيء وهي الفكرة السائدة قبله بل توجد بين مفهوم وصورة سمعية.



واجهة معنوية

واجهة حسية

L'arbitraire

٣.ثنائية أني/تطوري

من الواضح أن المنهج الذي كان سائدا في القرن التاسع عشر قبل دي سوسير هو الدراسة التاريخية التطورية وقد بقيت الأمور على تلك الحال إلى أن نشر الكتاب محاضرات في اللسانيات العامة سنة (١٩١٦) الذي شكك في جدوى الدراسات التاريخية، لأن ضرورة معرفة ما يطرأ على الظاهرة اللغوية عبر الزمن يأتي بعد معرفة الظاهرة في حد ذاتها في الزمن المعين (خولة إبراهيمي: ٢٠٠٠، ص ١٣).

وبهذا نجد أن هناك لسانيات خاصة بالدراسات الآنية (Linguistiques Synchroniques) و لسانيات خاصة بالدراسات التطورية (Linguistiques Diachroniques)، فاللسانيات الآنية أو السكونية واللسانيات التطورية، لا يمكن القطع بأنها لا تشكل أول ميلاد حقيقي للسانيات المعاصرة فقط، بل تمثل إلى جانب هذا أول رؤية منهجية في تحليل ومعالجة أية مدونة بين وضعها الآني أو وضعها الزمني (عبد الجليل مرتاض: ٢٠٠٥، ص.٢١).

فمصطلح اللسانيات الآنية (Synchroniques) يتكون من (Syn) بمعنى "في" و (chroniques) بمعنى "زمن"، كأن نقول حدث آني أي وقع الساعة (أحمد علي بركات: دون سنة، ص.٥٠).

فهي تهتم بالنظام اللساني في ذاته في اللغة بمعزل عن التاريخ ويطلق على هذه الشعبة من اللسانيات الوصفية، وتعني بدراسة اللغة كما هي مستعملة في مكان وزمان معينين، وخاصة في الزمن الحاضر وذلك بوصف مستوياتها المعجمية، والصوتية، الصرفية، والتركيبية والدلالية بطريقة علمية، ويقابل مصطلح اللسانيات الآنية اللسانيات الزمنية أو التطورية والتي تعني في اللغة تطور أي تغير إلى شكل آخر واكتسب تراكيب جديدة.

فاللسانيات التطورية (Linguistiques Diachroniques) تتكون من (Dia) بمعنى "عبر" و (chroniques) بمعنى "زمن" وتعني دراسة تطور اللغة عبر الزمن وهناك مصطلح آخر يستعمل مرادفا للسانيات الزمانية وهو اللسانيات التاريخية (أحمد مؤمن: دون سنة، ص.٩٠).

أما اصطلاحا: فالدراسة اللسانيات التطورية أو الزمانية وهي دراسة الظاهرة اللسانية عبر مراحل زمنية متتالية ويعبر عنها بمصطلح التي تترجم إلى العربية بمصطلحات كثيرة، تعاقبي، تاريخي، زمني، زمني تطوري حركي. وتهتم هذه الدراسة بالوقوف عند التحول المرحلي للسان عقب الحقب الزمنية (أحمد علي بركات: دون سنة، ص.٢٢٠).

فالسانيات الآنية تدرس أية لغة دراسة وصفية في حالة معينة أي في نقطة زمنية معينة ولا تقتصر في الواقع على دراسة اللغات الحديثة أو المعاصرة. أي دراسة اللغة كما هي مستعملة في مكان وزمان معينين وخاصة في الزمن الحاضر وذلك بوصف مستوياتها المعجمية والصوتية والصرفية والتركيبية والدلالية بطريقة علمية (أحمد مؤمن: دون سنة، ص٩٠).

أما اللسانيات التطورية أو الزمانية فتتناول بالدراسة التغيرات والتطورات المختلفة التي طرأت على لغة ما عبر فترة من الزمن أو خلال حقبة متتابعة في الزمن الماضي.

وبدون شك، فإن كلا المنهجين مهم في الدراسة اللغوية وينبغي فقط عدم الخلط بينهما عند البحث إذ لكل منهما مبادئه الخاصة، فالمنهج الآني منهج استقرائي ساكن والمنهج الزماني منهج حركي تطوري. والمؤكد أن "دي سوسير" لم يرفض البتة اللسانيات الزمانية، ولم يعدها شيئا ثانويا أو غير ضروري ولكنه ألح فقط على الفصل بينهما، كي لا تدحض النظرة التطورية الوصف الآني، وكي تثبت كل واقعة في مجالها الخاص.

بل دعا إلى عدم تغلب النظرة التاريخية على النظرة التي تعتمد إلى نظام اللغة في حالة تطورها أي أن يعلل كل شيء في هذا النظام بحوادث الزمان (عبد الرحمان الحاج صالح: ١٩٧٢، ص٤٤).

إذن وحسب "دي سوسير" اللسانيات الآنية تعني بالعلاقات النفسية والمنطقية التي تربط مفردات متواجدة معا وتشكل نظاما في العقل الجماعي للمتكلمين وعلى العكس تماما اللسانيات التطورية أو الزمانية تدرس العلاقات التي تربط المفردات المتعاقبة التي لا يدركها العقل الجماعي والتي يحل بعضها محل البعض الآخر دون تشكيل أي نظام يذكر.

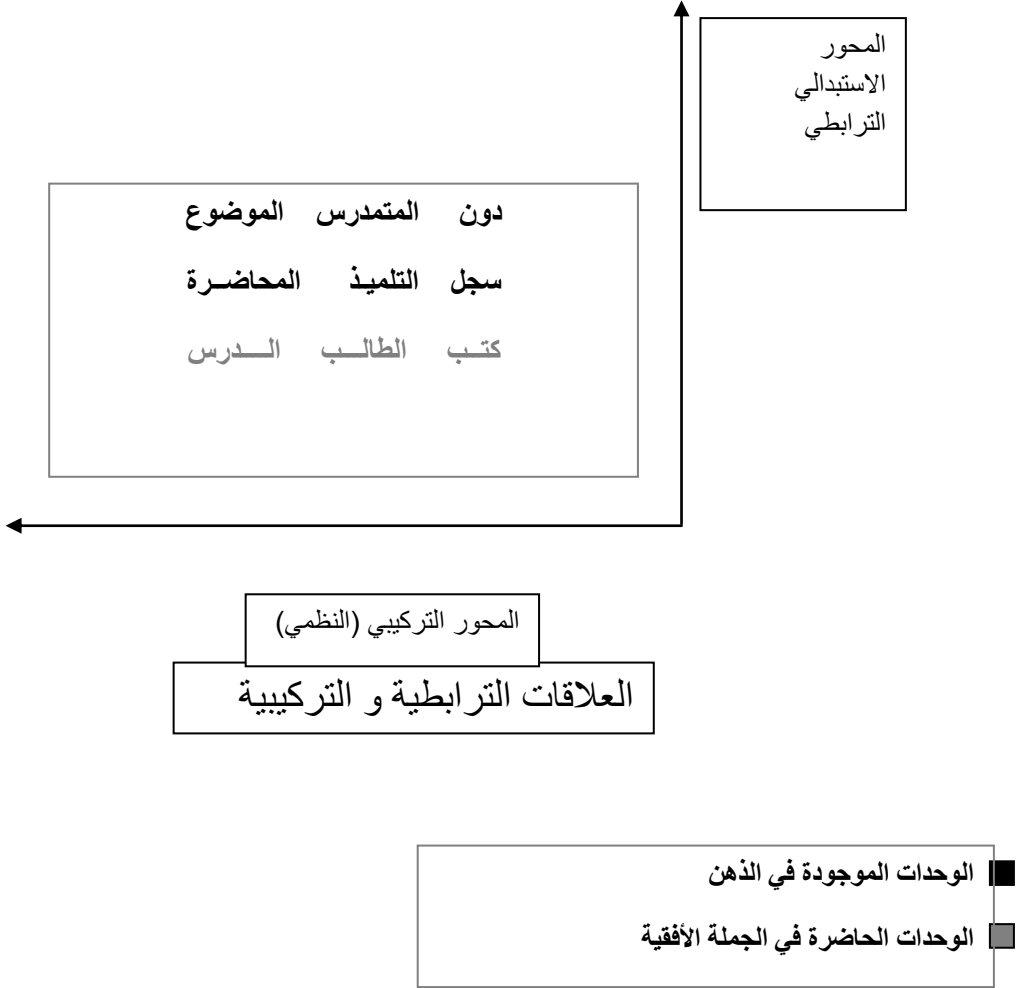
٤. ثنائية: المحور التركيبي (النظمي)/المحور الاستبدالي

وتتمثل هذه الثنائية في العلاقات التركيبية وهي العلاقات الأفقية الموجودة بين الوحدات اللغوية ضمن السلسلة الكلامية الواحدة، كالعلاقة بين أصوات الكلمة الواحدة وكلمات الجملة الواحدة، وتضفي كل وحدة معنى إضافيا على الكل، تكون في حالة تقابلية مع بقية الوحدات اللغوية الأخرى، ولا تكتسب قيمتها إلا بتقابلها مع الوحدات التي تسبقها أو تليها أو معهما جميعا (أحمد مؤمن:دون سنة، ص.١٣٠)، وتسمى هذه الأنساق الخطية تراكيبية.

مثال: كَتَبَ الطالب الدرس، ففي هذه الجملة هناك علاقة تركيبية من ثلاث وحدات وهي: كتب + الطالب + الدرس

أما على مستوى المفردات فتتمثل هذه العلاقة في إدماج بعض الصوامت في أنساق تركيبية حسب القوانين الفونولوجية المتعارف عليها في تكوين مفردات لغة ما كهذه المجموعة لصوامت:س+ي+م+ي+و+ل+و+ج+ي+ا والتي تعني مجتمعة سيميولوجيا، وفي هذا يقول "دي سوسير" تكتسب الكلمات علاقات مبنية على صفة اللغة الخطية بسبب ترابطها فيما بينها مما يستثني إمكانية لفظ عنصرين في آن واحد (أحمد مؤمن:دون سنة، ص.١٣١).

أما المحور الاستبدالي فيتمثل في العلاقات الاستبدالية أو الترابطية بين الوحدات اللغوية التي يمكن أن تحل محل بعضها بعض في سياق واحد، وبعبارة أخرى فإنها تعكس علاقات موجودة في أذهاننا، ففي المثال السابق يمكن تعويض كلمة كتب بدون، سجل،...، وكلمة الطالب ب التلميذ، المتعلم،... وكلمة درس ب: المحاضرة، الموضوع...وهكذا.



أما على مستوى المفردات يكون تحديد كل صوتم (Phonème) بمقابلته بالصواتم الأخرى التي يمكن أن تحل محله في سياقات مختلفة لتكوين الكلمات، وذلك كاستبدال الحرف الاستهلاكي ببعض الحروف، والإبقاء على الحرف الثاني والثالث كما في هذه المفردات: قام، رام، هام، دام أو استبدال الحرف الثاني من الكلمة بحرف آخر مع الإبقاء على الحرف الاستهلاكي والختامي في هذه الكلمات ذهب، أدب، سلب...الخ.

وبهذا يتجلى المنهج اللساني للبنوية في أبرز المفاهيم التي تقدم بها "سوسير(F. de Saussure)" في محاضراته وكشف عن مبادئ البنيوية(نصر الدين العياضي:١٩٩٨، ص.٥٩):

- الاهتمام بطبقة اللغة وجوهرها.
- تعرف العلامة اللغوية على أنها إنتاج عنصرين الدال والمدلول وتعتبر هذه الثنائية الصورة النموذجية التي يمكنها أن تختزل النظام اللساني وتدل عليه.
- اهتمامه بمبدأ نظامية اللغة.
- وأن اللغة عبارة عن مجموعة من العلاقات والقوانين تحكم مجموعة من العناصر المنتظمة في تناسق.
- وأنها نظام من العلامات لا قيمة لواحداتها وسائر مكوناتها إلا بالعلاقات القائمة فيما بينها.
- وأن قواعد الحالة النظامية الراهنة للغة هي المتحكمة في طبيعة التغيير اللغوي القائم على أساس التعاقب وهذا ما يفسر استمرار النظام اللساني لعلامات جديدة.
- تنبيهه للمنهج التزامني في دراسة اللغة.
- تأكيده على العامل النفسي والاجتماعي للغة.

٣.١ خصائص العلامة اللغوية عند دي سوسير

يتميز الدليل اللساني عند "دي سوسير (F. de Saussure)" بالخصائص الست

الآتية:

١. اللسان هو نظام دلائل.
٢. نظرية الدليل اللساني: الدال والمدلول.

٣. الطابع الاعتيادي.

٤. التسلسل الخطي.

٥. الطابع المميز.

٦. التقطيع المزدوج.

١. اللسان هو نظام الدلائل

إن اللسان هو نظام متكون من دلائل، وكل دليل لا قيمة له إلا بالتقابل مع الدلائل الأخرى، داخل ذلك النظام. فإذا عزلنا دليلا ما عن النظام الذي يعطيه قيمته فإننا لا نستطيع تعريفه. لأن اللسان هو نظام ترتبط في جميع أجزائه بعضها بعض على أساس اتحاد الهويات واختلافها وإن هذا الاختلاف الذي مثل جوهر النظام نفس يتم على أساس مبدأ التقابل (محمود إبراهيم: دون سنة. ص.٥٩).

ولهذا يعتبر "دي سوسير" اللسان" على أنه نسق من العلامات المعبرة عن أفكار، وهو بذلك شبيهه بأبجدية الصم والبكم وبالطقوس الرمزية وبأشكال الآداب والإشارات العسكرية، إلا أنه يعد أرقى هذه الأنساق. من هنا تأتي إمكانية البحث عن علم يقوم بدراسة هذه العلامات داخل الحياة الاجتماعية.

فما هي طبيعة اللسان، وما هي طبيعة الوحدات المكونة له ؟

لقد رفض "دي سوسير" الفكرة البسيطة والساذجة القائلة بأن اللسان مدونة، أي أنه يتكون من مجموعة الكلمات التي تتناسب وواقع الأشياء في العالم الخارجي، وكان من الطبيعي إذن أن يرفض أن تكون هذه الكلمات مجرد ظل للأشياء، إن اللسان لا يعكس الواقع ولا ينسخه، إنه يقدم مفصلة مزدوجة له: إن التقطيع الصوتي، بالإضافة إلى طبيعته الفزيولوجية المادية، يشكل تمثيلا رمزيا تحضر الأشياء داخله على شكل رموز صوتية محددة لتواضع تمثيلي جماعي للكون. وفي الآن نفسه، فإن المفهوم الذي تحضر عبره الأشياء إلى اللغة ليس مادة بل تصورا نفسيا تم الحصول عليه عبر سيرورة ترميزية بالغة التعقيد، وفي الحالتين معا، فإن ما يأتي إلى

اللسان ليحتوي به ليس أشياء قابلة للمعينة والضبط بل صور شتى تكشف عن عمق تجربة الإنسان مع الأشياء. ولهذا رفض "دي سوسير" أن يجعل من الكلمات رهائن عند الأشياء، كما رفض أن تكون الأشياء جواهر وضعت سرا في الكلمات، ويعلل ذلك بسببين على الأقل:

١- إن القول بأن اللسان مدونة معناه القول بأن الأفكار سابقة في الوجود على الكلمات، والحال أن لا شيء واضح قبل ظهور اللسان، ولا شيء يمكن أن يدرك خارج ما تسمح به العلامات، إن ذاكرة العالم ليست مضمونا فكريا يوجد خارج أي لسان، إنه مضمون من طبيعة لسانية، وعبر وحدات اللسان تتوضح الأفكار وتصنف التجارب وتدرج الأشياء وتوزع، فالعلامة ليست غلافا تسنده الصدفة إلى الفكر، بل هي عضوه الضروري والأساس، فهي لا تستخدم من أجل إبلاغ فكر معطى بشكل جاهز، بل هي الأداة التي من خلالها يتخذ الفكر شكلا ويخرج للوجود، ومن خلالها فقط يكتسب كامل معناه (Ernest Cassirer : 1972, p. 27).

٢- إن القول بأن اللسان مدونة معناه القول إن العلاقة بين الكلمات وبين العالم الخارجي علاقة في غاية البساطة، والحال أن الأمر على خلاف ذلك، فتشكل الدال وكذا تشكل المدلول خاضعان لسيرورة بالغة التعقيد والتركيب، فإذا كانت الدوال هي من صنع التواضع والتعارف، فإن المدلولات تستدعي تحكما تجريديا في التجربة الواقعية وإخضاعها لعملية تقليص تقود إلى "الإمساك بالجواهر القابل للتعميم" على حد تعبير ساير (E. Sapir: 1970, p.16)، إنه تحديد للقانون الذي يجب أن يحكم وقائع التدليل استقبالا.

إن اللسان من طبيعة أخرى، لذا فإنه يخضع لقوانين وقواعد يجب معرفتها وتصنيفها وتحديد انعكاساتها على الأنساق الأخرى. وبهذا فهو لا يمكن أن يكون فقط أداة خاضعة في الوجود وفي الاشتغال لعرضية التجربة الواقعية وتحولاتها الدائمة، من هنا فإنه، وعلى الرغم من استجابته الدائمة لحاجيات التجربة الواقعية، منفصل عنها وفاعل فيها أيضا، إنه يوجد خارج الفرد وخارج أهوائه، لذا رأى "سوسير" في اللسان مؤسسة اجتماعية

(F.De.Sausure :1979 ,p.25) شبيهة بباقي المؤسسات الأخرى التي خلقها المجتمع ليودعها قيمه وأخلاقه وفكره وحضارته.

استنادا إلى هذا، يمكن القول إن اللسان هو في الآن نفسه مؤسسة اجتماعية ونسق للقيم، فهو باعتباره مؤسسة لا علاقة له بالفعل الفردي، إنه تعاقد اجتماعي لا حول للفرد أمامه ولا قوة، وهو باعتباره نسقا من القيم يتكون من عناصر تشتغل في الآن نفسه باعتبارها ما يحل محل شيء ما، وباعتبارها علاقة بعضها ببعض.

وبناءً عليه، فإن جوهر اللسان يوجد خارج طابعه الصوتي، لذا فهو شكل وليس مادة، أي يجب أن ينظر إلى الوحدات اللسانية (من أصوات ومفردات وجمل) ليس كوحدات منفصلة، وإنما كشكل مترابط لا تظهر قيمته إلا من خلال ذلك الترابط بين عناصره وأجزائه جميعها، ومن ثم فإن تغيير موقع كلمة معينة، في جملة ما، ينتج عنه بالضرورة تغيير في الصيغة ومعنى الجملة ككل، كما أن تبديل حرف من حروف الكلمة يترتب عنه تغيير في بنية تلك الكلمة والمعنى الذي تدل عليه (محمود إبراقن: دون سنة، ص٦٠٠).

٢. نظرية الدليل اللساني: الدال والمدلول

إن طبيعة الدليل اللساني تستند على عملية (التسمية) بواسطة تلك الأشياء التي ترافق الكلمة أو الاسم يقول "دي سوسير" إن وحدة الدليل اللساني لديها جزأين يسمى "دي سوسير" هذين الجزأين بـ (المفهوم) و (الصورة الصوتية) فالصورة الصوتية ليست الصوت الفيزيائي (الطبيعي) (ذاك الذي يصنعه فمك وتسمعه أذناك) بل بالأحرى التأثير النفسي للصوت الانطباع الذي يولده تفسير ذلك، تحدّث إلى نفسك - أنت لا تحدّث صوتا، لكن لديك انطباع عمّا قلته.

فالدليل اللساني إذن، حسب "دي سوسير" من مضمون (مدلول Signifié) ومن تعبير صوتي (دال Signifiant) .

فالتعاريف الأكثر شيوعا لتعريف الدليل اللساني هو أن الدليل عبارة عن اتحاد بين المعنى والدلالة يقول "سوسير الصورة الصوتية هي المعنى والمفهوم هو الدلالة.

ويمكن تشبيه الدليل اللساني بورقة يكون وجهها الظاهر هو الصوت والوجه الآخر (الخفي) هو المفهوم أو الفكر، ومن ثم لا نستطيع فصل المفاهيم عن الأصوات التي تنقل عن طريقها. بعبارة أخرى يرتبط الدال بالمدلول ارتباطاً "بنويماً"، بحيث إن ما يمثله الأول يحيل ويستدع، في الوقت ذاته، ما يمثله الآخر. أي إن الذي ينتج عن اقتران الدال بالمدلول يتمثل في " الصيغة وليس في المادة '(محمود ابراقن:دون سنة.ص.٦٤).

إذن، فإن كلا من الدال والمدلول مترابطان ومتحدّان، فبدون الدال لا وجود للمدلول، والعكس صحيح.

٣. الطابع الاعتباري

يؤكد "دي سوسير" أن العلاقة الرابطة بين الدال والمدلول، استناداً إلى ما ذكرناه عن تعريف اللسان وعن سيرورة تشكل العلامة، هي من طبيعة اعتبارية، والاعتبارية في مفهومها الأدنى هي غياب منطق عقلي يرر الإحالة من دال إلى مدلول، فلا وجود لعناصر داخل الدال تجعلك تنتقل آلياً إلى المدلول، فالرابط بين هذين الكيانين يخضع للتواضع والعرف والتعاقد، فاختيار الأصوات لا تفرضه مقتضيات المعنى، ففكرة /أخت/ لا تربطها أية علاقة داخلية مع المتوالية الصوتية / أخ ت / التي تعتبر دالاً لها، فبالإمكان التمثيل لها بأية متوالية صوتية أخرى (F. Désassure: 1979, p.100)

فلا شيء يمنع -سوى قوة العرف- من إسناد هذه المتوالية الصوتية إلى هذا التصور الذهني. فليس هناك علاقة طبيعية وجوهية بين خصوصية الصورة الصوتية والمفهوم، مثال ذلك هو الحقيقة بأن هناك كلمات مختلفة في لغات مختلفة لشيء متشابه الكلب هو (dog) في اللغة الانكليزية و (perro) في الاسبانية و (chien) في الفرنسية و (hund) في الألمانية، هذا المفهوم يسود جميع الأفكار حول (بنية) اللغة يجعله من الممكن أن يفصل المعنى والدلالة أو يغير العلاقة بينهما (هذا ما يجعل من الممكن للمعنى الواحد أن يكون مترافقاً مع أكثر من دلالة والعكس بالعكس، والذي يجعل الغموض-التعبير الملتبس-وتعددية المعنى ممكنة).

فاللغة هي فقط نوعا واحدا من النظام السيميولوجي (علائقي) (كلمة سيميولوجي تشبه كلمة سيميوتيك الآتية من الكلمة اليونانية التي تعني العلامة) أي نظام للعلامات مركب من المعاني والدلالات هو (سيميوتيك) أو نظام معاني، ف"دي سوسير" إذن يصر على أن كل العلامات اعتباطية (عشوائية) (<http://www.taakhinews.org>).

وتشير الاعتباطية في مفهومها الأقصى إلى الطابع الثقافي الذي يحكم الظواهر المكونة للتجربة الإنسانية في كليتها، فهي طريقة أخرى للقول إن التسمية والتعيين والتصنيف هي إضافات الثقافة إلى ما منحته الطبيعة للكون الإنساني، من هنا، إذا كانت الطبيعة هي مرادف للمعطى البيولوجي والفزيولوجي الموجود خارج تجربة الإنسان مع الفعل ورد الفعل، فإن الثقافة هي ما يحدد الإضافات التي جاء بها التمدن.

كما أن مبدأ الاعتباطية ليس خاصا بالعلامات اللسانية فحسب، بل هو مبدأ واسع يمكن أن يشمل مجموع الظواهر الاجتماعية، فهذه الظواهر هي أيضا، وكما سبق ذكره من قبل، وليدة تعاقد انبثق عن الممارسة الإنسانية، إن الأمر يتعلق بظواهر ثقافية لا بمعطيات طبيعية. من هنا، فإن ما يصدق على اللسان يصدق على هذه الظواهر أيضا، ويمكن أن يشكل قاعدة لتعريفها وتصنيفها، " فكل وسائل التعبير المتداولة داخل مجتمع ما تستند مبدئيا إلى عادة جماعية أو إلى عرف، فأشكال الآداب مثلا التي تملك نوعا من التعبيرية الطبيعية (مثال الصيني الذي يحيي إمبراطوره بالانحناء تسع مرات) هي في واقع الأمر محكومة بقاعدة، وهذه القاعدة هي التي تفرض استعمالها لا قيمتها الجوهرية" (F.De.Saussure:1979, p.100) ، وهكذا إذن حسب رأي "دي سوسير" فإن الظواهر غير اللسانية، مثلها مثل الظواهر اللسانية، هي من طبيعة اعتباطية ويجب بالتالي التعامل معها بنفس القواعد التي تحكم اللسان. استنادا إلى هذا، "يمكن القول إن السيميولوجيا تجد صورتها المثلى في العلامات الاعتباطية " (F.De.Saussure:1979, p.100).

ومع ذلك، فإن هذا الحكم العام ليس قطعيا، ولا يمكن أن يخفي أن الوقائع غير اللسانية ليست بالبساطة التي يتميز بها اللسان، فهي لا تستند إلى نفس مبادئه من أجل إنتاج دلالاتها. والمثال الذي يقدمه سوسير للتدليل على اعتباطية المواد التعبيرية

غير اللسانية (F. Désassure:1979, p.100)، لا يغطي سوى جزء يسير من " اللغات " التي تشكل موضوعا للتواصل، وهي لغات تتجاوز في وجودها حدود التواصل لتعبر عن نوع من الانتماء الثقافي والاجتماعي والحضاري إلى هذه المجموعة البشرية أو تلك.

إن التصنيف المتضمن في مثال "دي سوسير"، سيترك جانبا مجموعة من العلامات التي لا يبدو -ظاهريا على الأقل- أنها تخضع لمبدأ الاعتباطية، فالرموز والقرائن والأيقونات علامات لها وضع خاص داخل سجل اللغات الإنسانية، ولا يمكن أن نتعامل معها كما نتعامل مع وحدات اللسان، فهي من جهة ليست اعتباطية بالمفهوم الذي يعطيه "دي سوسير" للاعتباطية، وهي من جهة ثانية، ليست معللة بالمعنى الذي يجعل منها كيانا حاملا لدلالاته خارج سياق الممارسة الإنسانية وسننها المتعددة.

وإذا كان الدليل، في علم اللسان، اعتباطيا فإن الأمر يختلف، فيما يخص الصور البصرية والصوتية: كالصور المتحركة، الصور الفوتوغرافية...الخ، حيث إن علاقتها بالواقع ليست كلها اعتباطية، إنها قد تكون-جزئيا أو كليا-معللة (محمود إبراهيم: دون سنة،ص.٦٨).

مثال: يمكن أن تكون إشارات قانون المرور إما اعتباطية (الأضواء الثلاثة: الأحمر، الأصفر، والأخضر) أو جزئيا معللة.

مثال:



ممنوع مرور الدراجات



ممنوع مرور الشاحنات

ورغم الانتقادات التي وجهت إلى التصور السوسيري لمفهوم الاعتباطية، فإن قيمته المعرفية ومردوديته التحليلية لا يمكن إنكارهما.

٤. التسلسل الخطي

إن الخاصية الرابعة للعلامة هي أن المعنى (هنا يعني الكلمة المنطوقة أو المعنى المسموع) موجود في (الزمن)، وذلك الزمن يمكن أن يقاس باعتباره مؤلف من خطوط، لا تستطيع أن تقول كلمتين في نفس الوقت عليك أن تقول واحدة وبعدها الأخرى في الشكل التخطيطي (التشابه صحيح للغة المكتوبة، عليك أن تكتب كلمة واحدة في وقت معين برغم ذلك تستطيع كتابة أكثر من الكلمة المكتوبة سابقا)، وأنت على العموم تكتب الكلمات في خط مستقيم.

هذه الفكرة مهمة لأنها تظهر بأن (اللغة المنطوقة على أية حال) تعامل كتسلسل خطي، حيث تأتي الكلمات على محور الكلام الخطي واحدة بعد أخرى بجانب بعضها البعض (<http://www.taakhinews.org>).

بمعنى أن لكل لغة طبيعية تتجلى عبر مجموعة من ملفوظات، تتخذ هذه الأخيرة شكل خطي يطلق عليها السلسلة المنطوقة، وتبين صفة الخطية في الدال حين يمكن تقسيمه إلى أجزاء كل جزء منها يأتي عقب جزء آخر في التتابع الزمني المنتظم فكلمة "كتب" مثلا يمكن تقسيمها إلى أجزاء متتالية على النحو التالي:

ك + فتحة + ت + فتحة + ب + فتحة.

فخطية الدال تعود إلى الطابع النطقي الذي تتميز به اللغة الطبيعية، فالملفوظات تنجر حتما وفق الزمن وتدرج بالسمع عبر تتابعها، على عكس الوسائل التعبيرية المرئية كالرسم مثلا، فعلى الرغم من أن الفنان يرسم لوحته مراعي انتظام عناصرها فالمتأمل أو الناظر لتلك اللوحة يدرك الرسالة التي يحتويها الرسم معتبرا إياها كلالا لا يتجزأ.

٥. الطابع المميز

بما أن اللسان نظام من الدلائل المحدودة العدد فإن هذه الدلائل لا تكون إلا وحدات مميزة أو مجزأة : أي يتميز بعضها عن بعض وتكون قابلة للاستبدال. تكون

العلاقة بين حرفي /ق/ و/و/ع/ في اللغة العربية، علاقة مميزة لأن استبدال حرف /ع/ بحرف /ق/ يؤدي إلى اختلاف في معنى الكلمات (مثال: قاد/عاد).

وهكذا، فإن الحروف التي تؤلف الكلمة (Morphème) هي وحدات مميزة لأن كل إبدال في حرف ينجر عنه تغيير جوهري، في هيئة الكلمة مثال: التقابل بين الوجدتين المميزتين /ز/و/ط/، في هيئة الكلمة. (مثال زائر/طائر). وتكون الكلمات بدورها وحدات مميزة، بحيث إن إبدال كلمة /موقد/ بكلمة /مار/، في جملة: "المارقد انكس" يغير المعنى جذريا (محمود ابراقن: دون سنة.ص.٧٠).

ومن هنا، فإن الدليل المميز هو الدليل الذي لا تكمن قيمته إلا إذا أثبت وجوده، في ذلك اللسان (بتقابله مع بقية الدلائل الأخرى التي تكون بالضرورة مغايرة وتفاضلية).

٦. التقطيع المزدوج

تعد صفة التقطيع المزدوج التي وضعها "أندري مارتني" الصفة التي تميز الألسن البشرية عن بقية أنظمة الاتصال الأخرى. والتي يقصد بها تجزئة مدرج الكلام إلى مقاطع صوتية أو تجزئة مدرج الدلالات إلى وحدات ذات معنى (محمود ابراقن: دون سنة، ص.٧١).

حيث يكون التقطيع الأول عندما يجزأ الملفوظ اللغوي إلى وحدات دنيا دالة أي إلى "كلمات" تدعى وحدات دالة.

مثال: يتألف الملفوظ اللغوي "الأطفال يلعبون" من الوحدات الدالة الست الآتية: /ال/طفل/جمع تكسير/ ي / لعب/ و/، بحيث إن كل عنصر من هذه العناصر يمكن أن يستبدل في المحيط نفسه بعناصر دالة أخرى تقع على المحور الاستبدالي، كما يمكن لهذه العناصر أن تقع في محيط مختلف، عندما تقرر بوحدة دالة أخرى على المحور التركيبي.

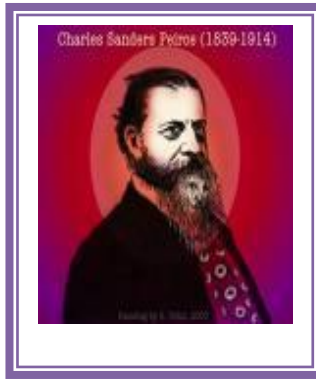
أما التقطيع الثاني فيتم في تجزئة العنصر الدال بدوره إلى وحدات متعاقبة أصغر ومجردة من المعنى: أي إلى الوحدات المميزة المتجسدة من خلال الوحدات

الصوتية الوظائفية (أي الحروف أو الفونيمات). مثال: تتألف كلمة "الأطفال" بدورها من أربع وحدات صوتية ووظائفية (أل+أط+فا+ل)، حيث يمكن لكل وحدة من هذه الوحدات أن تستبدل بوحدات أخرى، في المحيط نفسه، أو تقترن بوحدات أخرى كي تألف وحدات دالة مختلفة (محمود ابراقن: دون سنة، ص.٧١).

٢. المدرسة الأمريكية

في الفترة التاريخية التي كان يصوغ فيها "سوسير" تصوره الجديد للسانيات ويداعبه حلم في تأسيس علم جديد أطلق عليه السيميولوجيا، كان الفيلسوف الأمريكي شارل ساندرس بيرس (١٨٣٩-١٩١٤) ينحت من جهته، انطلاقا من أسس إبستمولوجية مغايرة، تصورا آخر لهذا العلم سيسميه السيميوطيقا. والسيميوطيقا عنده لا تنفصل من جهة عن المنطق باعتباره علم التفكير الصحيح. ولا تنفصل من جهة ثانية عن الفينومينولوجيا (سعيد بنكراد: ٢٠٠٣، ص.٥٨).

ونحاول في هذا المبحث التعرف على حياة "بيرس Peirce" ورؤيته لمفهوم العلامة ومكوناتها وتصنيفاتها عنده .



١.٢ التعريف برائد المدرسة الأمريكية تشارلس ساندرس بيرس

ظهر تشارلس بيرس (Charles Sanders Peirce 1839-1914) رائد الفكر الفلسفي البرجماتي، وتشارلس ساندرس بيرس ابنٌ لعالم الرياضيات الكبير بنيامين بيرس، وجاء

الابن عالماً في الرياضيات، وفيلسوفاً وعالم منطق، وقبل اشتغاله بالفلسفة. اشتغل عشر سنوات داخل معمل الكيمياء.

وقد نذر حياته خلال هذه الفترة لما عرف باسم العلوم المضبوطة، معنى هذا أنه عالم أرقته أزمة العلم والبحث العلمي، ويجمع المتخصصون على أن تشارلس بيرس هو أعظم الفلاسفة الأمريكيين قاطبة، ويرى البعض أن دراسته تعد منجماً غنياً لا ينفد من الأفكار الخاصة بالمنطق ونظرية المعرفة ومناهج البحث للعلوم وما يعرف باسم السيميوطيقا، وأثر أعماله تأثيراً واضحاً في المنطق الرياضي، وله جهود بارزة في مجال نظرية الاحتمالات ومنطق العلاقات. ولذا يعده البعض مؤسس المنطق الحديث (<http://www.lissaniat.net>).

كما لم يكن (تشارل. س. بيرس) مجهولاً خلال حياته في فرنسا. فقد شارك باعتباره عالم أرض في الندوة العالمية الأولى لعلماء الأرض التي انعقدت بباريس سنة (١٨٧٦).

قبل تقديم تعريف العلامة عند "بيرس" لابد، أولاً، من تقديم تحليل المقولات العامة التي تقوم عليها العلامة. وفي هذا المضممار يميز "بيرس" ثلاثة عوامل تميز فيما بينها بواسطة ثلاث أنماط تلبسها الوجود وهي:

فالعالم يمثّل أماننا في مرحلة أولى على شكل أحاسيس ونوعيات مفصولة عن أي سياق زمني أو مكاني، وهذا ما يشكل مقولة الأولانية. وتشير هذه المقولة إلى الإمكان فقط، فلا شيء يوجي بأن معطياتها قد تتحقق في واقعة ما (سعيد بنكراد: ٢٠٠٣، ص ٥٨-٥٩). كما يسمى هذا العالم كذلك بعالم الأفكار أو الممكنات. ويشترط في هذه الأفكار أو الممكنات أن تكون مهمة.

فالسعادة مثلاً، قيل أن يكون هناك إنسان سعيد، لم تكن سوى حالة شعورية محتملة. ويمثّل في مرحلة ثانية باعتباره وجوداً فعلياً يأخذ على عاتقه تجسيد الأحاسيس والنوعيات في وقائع مخصوصة وهو ما يشكل مقولة الثنائية أو ما يسمى بعالم الموضوعات، وتشير هذه المقولة إلى التحقق الفعلي، (رجل سعيد مثلاً). ثم يمثّل أماننا، في مرحلة ثالثة، باعتباره قانوناً، أي باعتباره مفاهيم مجرد المعطى من بعده

المحسوس لكي تكسوه بغطاء مفهومي، وفي هذه الحالة نكون أمام القانون الذي يمكننا من التعرف استقبالا على هذه الوقائع، وهو ما يتطابق مع مقولة الثالثة الثانية، وهي التي تجعلنا نؤول سلوكا ما باعتباره دالا على السعادة لا التعاسة. ويصوغ "بيرس" هذه السيرورة على الشكل التالي: أول يحيل على ثان عبر ثالث (سعيد بنكراد:٢٠٠٣، ص.٥٩).

وبهذا التصور تتحول السيميوطيقا إلى جهاز عملي غايته القصوى هي البحث عن مختلف الأنظمة الدالة وفي مختلف العلوم سواء كانت إنسانية أو عقلانية، لأن "بيرس" (Ch. S. Pierce) أدرك أن هذه العلوم جميعها هي علوم تقوم على مبدأ العلامة.

إن العلامة في تصور "بيرس" هي الوجه الآخر لأوليات الإدراك، لذا لا يمكن تصور السيميوطيقا مفصولة عن عملية إدراك الذات وإدراك الآخر، إدراك "الأنا" وإدراك العالم الذي تتحرك داخله هذه "الأنا". فالتجربة الإنسانية، كما سبقت الإشارة، تشتغل بكافة أبعادها كمهد للعلامات: لحياتها ولنموها ولموتها أيضا. فلا شيء يفلت من سلطان العلامة، ولا شيء يمكن أن يشتغل خارج نسق يحدد له سمكه وطرق إنتاجه لمعانيه، ولا وجود لشيء يخلق حرا طليقا لا تحكمه حدود ولا يحد من نزواته نسق (سعيد بنكراد:٢٠٠٣، ص.٦٠).

٢.٢ مفهوم العلامة عند بيرس

فنظام "بيرس" (Ch. S. Pierce) السيميوطيقي هو عبارة عن مثلث (تشكل العلامة فيه الضلع الأول الذي له صلة حقيقية بالموضوع الذي يشكل الضلع الثاني المحدد للمعنى وأن الضلع الثالث أي المعنى هو علامة كذلك تعود على موضوعها الذي أنتج المعنى).

فالعلامة عنده متعددة الأوجه، وإذا تأملنا مفهوم "بيرس" (Ch. S. Pierce) نجده يماثل عبد القاهر الجرجاني من حيث قابلية المفسرة لأن تتحول إلى متوالية من العلامات لها فضاء دالي غير محدد، يقول هذا الأخير (المعنى ومعنى المعنى) نعني بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ الذي نصل إليه بغير واسطة ومعنى المعنى أن تعقل من اللفظ

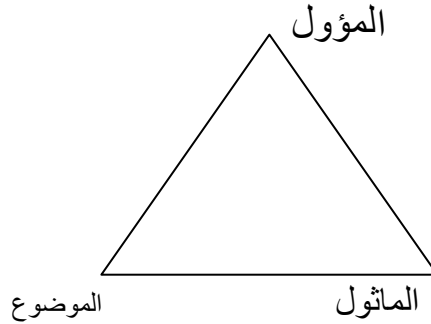
معنا ثم يفضي بك هذا المعنى إل معنى آخر. يفهم من هذا القول أن المعنى (المدلول) قد يتحول إل المبنى (الدال) باحثا عن مدلول آخر أي أن المعنى وبعده ذاته علامة تعود على موضوعها الذي أفرز المعنى.

وبالتالي فالعلامة عند "بيرس" (Ch. S. Pierce) تتكون من كيان ثلاثي (بشير تاويريت: ٢٠٠٦، ص ص. ١٢٠-١٢١):

الممثل (الماثول): هو صورة صوتية أو مرئية لكلمة ما.

الموضوع: وقد يكون واقعي أو قابل للتخيل أو غير قابل للتخيل أي الموضوع الديناميكي، وهو الشيء في العالم الموجودات، وثانيتها هو الموضوع المباشر، وشكل جزء من أجزاء العلامة، وعنصرها من عناصرها المكونة.

المؤول: هو صورة ذهنية مترابطة مع كلمة أو غير مترابطة. وبهذا فهي تنبني على نظام رياضي منطقي قائم على نظام ثلاثي كما في الشكل الموالي:



فالعلامة إذن هي ماثول (représentamen) يحيل على موضوع (objet) عبر مؤول (interprétant). وهذه الحركة (سلسلة الإحالات) هي ما يشكل في نظرية بيرس ما يطلق عليه السميوز، أي النشاط الترميزي الذي يقود إلى إنتاج الدلالة وتداولها.

وبعبارة أخرى، إن السميوز هي المسؤولة على إقامة العلاقة السيميوطيقية الرابطة بين الماثول والموضوع عبر فعل التوسط الإلزامي الذي يقوم به المؤول. وعلى هذا الأساس، فإن السميوز تتحدد باعتبارها سيرورة يشتغل من خلالها شيء ما كعلامة،

وتستدعي استيعاب الكون من خلال ثلاثة مستويات: ما يحضر في العيان وما يحضر في الأذهان وما يتجلى من خلال اللسان (سعيد بنكراد:٢٠٠٣، ص.٦١).

استنادا إلى هذا وجب النظر إلى العلامة باعتبارها وحدة ثلاثية المبني غير قابلة للاختزال في عنصرين. فإذا كان "سوسير" يصر على استبعاد المرجع من تعريفه للعلامة ويعتبره معطى غير لساني، فإن "بيرس" ينظر إلى المسألة من زاوية أخرى. فبناء العلامة يرتكز، في تصوره، على فكرة الامتداد التي تجعل من الكون بكل مكوناته وحدة لا تنفصم عراها. فما يؤثت الكون ليس أشياء مادية، بل علامات، ونحن لا نتحاور مع واقع مصنوع من ماديات، بل نتداول هذا الواقع من خلال وجهه السيميولوجي، إننا " نحى داخل كون رمزي، ...وبقدر ما يزداد النشاط الرمزي يتراجع الواقع " (سعيد بنكراد:٢٠٠٣، ص.٦١).

فالماثول إذن حسب "بيرس" هو شيء يعوض النسبة لشخص ما شيئا ما بأية صفة وبأية طريقة. إنه يخلق عنده علامة موازية أو علامة أكثر تطورا. إن العلامة التي يخلقها أطلق عليها مؤولا للعلامة الأولى، وهذه العلامة تحل محل شيء موضوعها " (Ch. S. Pierce, 1978: 121)

وبناء عليه، يشغل الماثول كأداة نستعملها في التمثيل لشيء آخر. إنه لا يقوم إلا بالتمثيل، فهو لا يعرفنا على الشيء ولا يزيدنا معرفة به. ذلك أن موضوع العلامة هو ما يجعلها شيئا قابلا للتعرف، وهو، في الوقت نفسه، المعرفة المفترضة من خلال وجود باعث ومتلقي (Ch. S. Pierce, 1978: 123).

ولزيد من التوضيح يمكننا القول إن الماثول يقوم بنفس الدور الذي يقوم به الدال في التصور السوسيري.

أما عن الموضوع فهو ما يقوم الماثول بتمثيله، سواء كان هذا الشيء الممثل واقعيًا، أو متخيلا أو قابلا للتخيل أو لا يمكن تخيله على الإطلاق. ويلخص "بيرس" هذه الملاحظة بقوله " إن موضوع العلامة هو المعرفة التي تفترضها العلامة لكي تأتي بمعلومات إضافية تخص هذا الموضوع " (Ch. S. Pierce: 1978, p.123). ووضح بيرس هذا التعريف بقوله " إذا كان هناك شيء يحدد معلومات دون أن تكون لهذه المعلومات أدنى

علاقة بما يعرفه الشخص الذي يستقبلها لحظة بثها (وستكون معلومة غريبة حقاً)، فإن الأداة الحاملة لهذه المعلومات لا تسمى-في هذا الكتاب-علامة" (Ch. S. Pierce: 1978, p.123).

وبناء على ذلك، فإن الموضوع لا يوجد له مقابل عند "سوسير، وعند الحديث عن موضوع ما داخل إحالات السيميوز لا يمكن أن ينفصل عن عملية الاتصال نفسها. فالمرسل والمستقبل يجب أن يمتلكا معرفة سابقة (معرفة مباشرة وهي المعطاة ومعرفة غير مباشرة وهي التي تدرك) عن موضوع ما لكي يكون هناك حوار.

مثال ذلك الجملة التالية: شجرة طويلة.فالموضوع المباشر هو إسناد صفة الطول إلى الشجرة، وهو أمر يدركه كل من له معرفة باللغة العربية، إما أن تكون الشجرة دالة على الخصوبة أو الوطن أو مضمون أسطوري آخر، فذلك أمر يتطلب معرفة بالثقافة التي تصاغ ضمنها هذه الجملة وهو ما يسميه بالتجربة الضمنية (سعيد بنكراد:٢٠٠٣، ص.٦٦).

في حين يشير المؤول إلى عنصر ثالث داخل نسيج السيميوز، وعمادها وبؤرتها الرئيسية. فلا يمكننا الحديث عن العلامة إلا بوجود المؤول باعتبار العنصر الذي جعل الانتقال من الماثول إلى الموضوع، فهو الفكرة التي بموجبها يحيل ماثول ما على موضوع، أو هو التصور الذهني العام الذي نملكه عن الشيء الموجود في العالم الخارجي (سعيد بنكراد:٢٠٠٣، ص.٦٧).

وهذا ما وضعه "سوسير" فإذا أخذنا على سبيل المثال كلمة "حصان" فإن الدال هو الصورة الصوتية (يعني وجود أصوات ح-ص-ا-ن)، أما المدلول فهو-مفهوم الحصان. والعملية التي يجري إخضاع الدال لها وتتماشى والمدلول تسمى الدلالة. إذ أن الرابطة ما بين هذا الدال (الماثول) وما يقابله من مدلول (مؤول)، من حيث الجوهر-هي رابطة تواضعية وغير معللة (لأننا لا نستطيع أن نثبت، على سبيل المثال، أن الصورة الصوتية لكلمة "حصان" يحددها جوهر مفهوم "الحصان"). ولكن، مع ذلك فإن المواضعة الساكنة في أساس الدلالة وطيدة وثابتة (لا يوجد أحد من بين أعضاء المجتمع يستطيع أن يغيرها انطلاقاً من رغبته الفردية)، لقد تم "تحييد" هذه المواضعة.

ويتخذ الترابط بين العناصر الثلاثة المشكلة للعلامة الشكل التالي: أداة للتمثيل، تستدعي موضوعا كشيء للتمثيل، وتستدعي مؤولا كرابط بين العنصرين، أي ما يوفر للماثول إمكانية تمثيل الموضوع بشكل تام داخل الواقعة الابلاغية:

مؤول

ماثول ===== موضوع

الخط المتقطع يشير إلى أن العلاقة بين الماثول والموضع ليست مباشرة بل تمر عبر المؤول.

ولا يمكن إدراك ذلك إلا بتوفر مواصفات ثقافية تدرج ضمنها العلامات الخاصة بالسلوك والوقائع والأشياء، ثم إن وصف هذه التجربة وتصنيفها رهين بخروجها من دائرة -الفعل الخام- لكي تصبح كيانات ثقافية، أي سلسلة من العلامات المندرجة ضمن سنن هي عماد التواصل الاجتماعي، وهي أساس بناء المجتمع ذاته (سعيد بنكراد: ٢٠٠٧، ص ص ١٣-١٤).

إن العلامة بهذا في رأي سعيد بن كراد هي الشكل الرمزي الأمثل الذي يقوم بدور الوسيط بين الإنسان وعالمه الخرجي، وهي الأداة التي يستعملها في تنظيم تجربته بعيدا عن الإكراهات (أو الضوابط) التي يفرضها الاحتكاك المباشر مع معطيات الطبيعة الخام. بل يمكن القول استنادا إلى مثال ايكو نفسه: إن العلامة هي الأداة التي من خلالها تأنسن الإنسان وانفلت ممن ربة الطبيعة ليح عالم الثقافة الرحب الذي سمبه طاقات تعبيرية هائلة (سعيد بنكراد: ٢٠٠٧، ص 9).

أو بعبارة أخرى، ليعلمه كيف يعيش وكيف يدرك كنه الواقع ويحلله ويفهمه ويؤول رموزه التي تتعلق بحياة الإنسان كلها ويعبر عنه بواسطة اللغة.